مقال عن رواية" مغامرات هاكلبيري فن "

للكاتب الأمريكي مارك توين

عندما كنت في السابعة من عمري , كنت أتابع مسلسل كارتوني عن ولد صغير ورجل أسود على طوف عائم , وهما يمران بالعديد من المغامرات في كل بلدة يحطون عليها , وكل ماعلق بذاكرتي شخصية " جيم " العبد الهارب الطيب الحزين الذي يريد الفوز بحريته بأي ثمن , والولدالشقي هاكلبيري فن الذي يحبه , والذي يقع رغمًا عنه في الكثير من المتاعب .

ثم بعد ذلك قرأت الرواية أكثر من مرة بترجمات مختلفة للعربية . وفي كل مرة أجد المتعة بل واكتشف مالم ألاحظه في المرات السابقة. والرواية بصفة عامة أجد من الصعوبة أن أصدق أنها كتبت عام 1884م، فهي تنتقد بشكل واع مشاكل ذلك العصر من عبودية ظالمة، انتهاك لحقوق الطفل، اتباع الناس للعادات الذميمة مثل الأخذ بالثأر، الايمان بالخرافات والسحر، السير وراء الدجالين . وذلك دون أن يعبأ المؤلف بتبعات معارضته لعادات ندر معارضتها . وقد ابتعد عن الحديث الخطابي عالي النبرة , بل تناوله بأسلوب فكاهي محبب للنفس , لايكف المرء عن الضحك عند قراءته .

والرواية يرويها طفل يدعى" هاكلبري فن"، والذي ظهر من قبل في رواية" مارك توين " "مغامرات توم سوير " كصديق له , بل إن توم سوير نفسه ظهر في تلك الرواية . وهاكلبري طفل يتيم الأم، ووالده سكير مقامر , يعيش حياة الصعاليك يفرض قوته على الضعفاء ، ولاهم له في الحياة سوى شرب الخمر . وهاك بدوره طفل هائم على وجهه يلبس الأسمال البلية ويأكل من القمامة، لايعرف شيئا من آداب السلوك والتربية، تحذر الأمهات أبناءهن من مصادقته، ولكنه طيب القلب يحذر الى حد ما من العواقب بعكس صديقه " توم سوير" الذي هو على أتم استعداد برمي نفسه وغيره في المتاعب ليستمتع بأكبر قدرمن المغامرات .

وهاكلبري فن أو الراوي لروايتنا يحكم على الأحداث من منطلق خبرته المحدودة الى حد ما و بعض الأشخاص السيئين مثل : الدوق ، والملك، هم في الأصل مجرمين نصابين، يحكي في البداية هاك عن نبلهم وأصلهم الرفيع، ومع ذلك يصوغ أحداث تبرز وضاعة أصلهم وحقارة أفعالهم . وهو بذلك يشركنا في الأحداث ويجعلنا نحكم على هؤلاء , دون أن نختلف معه . وهو

بالرغم من سذاجة تفكيره أمام "توم سوير" ذي الخيال الواسع , إلا أن له حيلة واسعة وذلك عندما هرب من أبيه في الكوخ .

و" جيم " العبد الهارب الطيب الذي يتحمل مسئولية " هاك " طوال الرحلة ، نجده يتبادل دورين معا ، غهو الأب المسئول صاحب الخبرة الذي يدعم "هاك " وفي نفس الوقت هو العبد الهارب الذي على أتم الاستعداد للهروب الى أي مكان محتميا بسيد أبيض هو " هاك " ويقع فريسة لخدعة منها دسه لثعبان ميت في غطاء " جيم " فتلدغ "جيم" وليفة الثعبان ويظل مريضا أثر ذلك عدة أيام . وأرى أن " جيم " مرتبط بأكثر مشهد حزين أثر في بشدة في الرواية – على الرغم من أن هناك العديد من المشاهد الحزينة , مثل : معاملة والد " هاك " السيئة له , وضربه , وقتل الطفل "باك جرانجرفورد " في معركة للثأر، الا أن الموقف الأكثر حزنا – عندما يحكي جيم عن ابنته الصغيرة اليزابث التي لم تبلغ الرابعة من عمرها والتي أصيبت بالحمى، ثم فقدت سمعها ولم يدر أحد بذلك، وذات مرة أمرها " جيم " غلق الباب فلم تسمعه . بل ظلت تبتسم له , فصفعها صفعة شديدة أطاحت بها ومع ذلك لم يعرف بصممها إلا بعد أن أغلقت الريح الباب بشدة ولم تسمعه الصغيرة . وفي المجمل نجد " جيم " هو السند ل"هاك " في مغامرته، وهو نقطة ضعفه في ذات الوقت، ففي ذلك الزمن عندما كان يقبض على عبد هارب بمساعدة شخص أبيض يعاقب ذك الشخص أيضا .

وهناك " توم سوير " صديق " هاك " والقارئ النهم لكتب المغامرات، بل يتفوق عليهم في الخيال الواسع، فهو أول الرواية يكون عصابة لقطع الطريق، ويخيل خطفه للناس في كهف كبير وطلب فدية ,ويعامل المخطوفات معاملة حسنة حتى يتركن بيوتهن ويحببن أفراد العصابة . في حين أن أقصى انتصاراته كانت بالسطو على رحلة مدرسية، لأخذ الفطائر والكعك، ولكن مدرس المدرسة استرد ما سلبته عصابة " توم سوير" من التلاميذ . وقمة مغامرات "توم " عندما سافر لخالته " سالي " قاطعا حوالي ألف وخمسمائة ميل ليجد " هاكلبري " قد اتخذ اسمه فيستغل الفرصة ويأخذ هو اسم شقيقه " سيدني " ويقوم بمغامرة ظلت أسابيع لانقاذ " جيم " العبد الهارب المحبوس في كوخ بمزرعة الخالة " سالي " ومربوط بسلسلة في قائمة الفراش يستطيع أن يتخلص منها " جيم " بمجرد رفع الفراش، ولكن " توم " لا يفكر بتلك الطريقة، فنجده يتفوق في خدعه على " سجين قلعة ديف" الذي تخيل توم أنه حفر سبعة وثلاثين عاما , ثم خرج في الصين . ونجد " توم "

يملأ كوخ " جيم " بالفئران لأنه يرى أنها ضرورية للسجين والدم الذي يسيل من " جيم " نتيجة لعض تلك الحيوانات , لابد أن يستغل في كتابة مذكرات يقرأها العالم ليعرف بمعاناة جيم , في حين أن " جيم " , لا يجيد الكتابة , فضلا عن جعله يحفر خندقا بشوك وسكاكين الطعام المسروقة من الخالة " سالي" , وصناعته لحبل وسلم من الغسيل المسروق من الخالة , أيضاوصناعته لحبال وسلم من الغسيل المسروق من الخالة , ودسه بداخل الفطائر المعدة ل"جيم " لتساعده بعد ذلك في الهرب – في حين أنه يعرف أن " جيم استرد حريته , ولكنه يفعل ذلك حبا في المغامرة . حتى عندما يصاب بطلق ناري , نجده يشعر بسعادة غامرة , فيضع الرصاصة بعد استخراجها في سلسلة الساعة ويعلقها حول عنقه .

أما والد " هاك " السكير الذي يضربه بقسوة بلا سبب , ويحس بالعار منه لمجرد أنه ذهب للمدرسة , نجده في الحقيقة شخصية ضعيفة , ويظهر هذا في هلوساته أثناء نومه عندما يتخيل أن الثعابين تهاجمه , ولانحس بالشفقة ناحيته , لأنه هو من أدمن الخمر , ونجد المقابل له القاضي " ثاتشر " الذي يحمي هاك ويحفظ له ماله ويستثمره , حتى بعد أن يكتب " هاك " تنازل له عنه , فانه يجاريه ولايمس المال بل يرعاه .

أما المحتالان الدوق والملك , فأحدهما رجل في السبعين من عمره وهو "ادموند كين الأكبر" ويدعي أنه " دوفين " ابن ملك فرنسا " لويس السادس عشر " و" ماري انطوانيت " , ويعتبر نفسه " لويس السابع عشر " ملك فرنسا الشرعي . وهو يمارس التطبيب ويتنبأ بالحظ ويعمل واعظا . أما الثاني " ديفيد جاريك الأصغر " فهو شاب يمارس أي مهنة طالما لاتعتبر وظيفة بحسب قوله , وقد عملا في صناعة الأدوية والتمثيل والتعليم لغناء والجغرافيا والقاء الأحاديث , وهو ادعى أنه الوريث الشرعي للدوق" بريدجووتر" , وقد طافا الاثنان مع " جيم " و هاك " على الطوف و قاما بجولة بالمدن الصغيرة , يقومان بالتمثيل , في حين لم يعجب بتمثيلهما أحد من الناس , بل كانا يدعيان أنهما ممثللن عالميا , ويقومان بالنصب على الناس . بل وقاما بالنصب على فتاتين صغيرتين من الأثرياء مات والدهما توا , ليتسلما ثروته , ويديرونها , ولكن" هاك " يكشف خدعتهما ويتصدى لهما بالحيلة .

وهناك من الشخصيات الثانوية التي وصفها " هاك " , مثل الكولونيل " جرانجرفورد " طوي القامة النحيل الأنيق , وابنائه" بوب" وتوم" ولهما نفس مواصفات لأب وايضا الصغير " باك " . وبالرغم من دماثة وكرم هؤلاء نجدهم يؤمنون بالأخذ بالثأر من عائلة "شيبردسون " الذي امتد

لسنوات طويلة في العالة . وذلك لأتفه الأسباب , وفي المقابل نجد " هاري شيبردسون " الذي يهرب مع ابنة الكولونيل .

وأيضا هناك " ليفي بل " المحامي , والدكتور " روبنسون " أصدقاء المرحوم " بيتر واكس " الذي أراد الدوق والملك أن يأخذا ثروته .

أما الشخصيات النسائية فنجد مسز " دوجلاس " التي تبنت " هاك " وربته على اتباع السلوكيات الحميدة والتدين , وأختها الأنسة " واطسن " . ولكن الأنسة " واطسن " متشددة أكثر على " هاك " من مسز دوجلاس التي كانت تلين احيانا ل" هاك " . ولكن الأنسة " واطسن " التي كادت تبيع " جيم " نجدها اختتمت حياتها بفعل طيب , ألا وهو اطلاق سراح " جيم " .

وهناك الخالة " سالي " أخت الخالة " بولي " وخالة " توم سوير " وهي امرأة طيبة. ارادت تبني " هاك " في آخر الرواية " .

ومن الشخصيات النسائية الثانوية : "شارلوت جرانجرفورد" الجميلة المتكبرة , وأختها صوفيا الجميلة الرقيقة التي هربت مع "هاري شيبردسون " في قصة تذكرنا بروميو وجولييت . وايضا هناك ابنتي المرحوم " بيتر واكس " الذي كاد الدوق والملك أن يفتكا بثروتهما .